مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 06 العدد 03 ديسمبر 2020 ص- ص:42-60

العلاقات التجارية بين دول المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي في العصر الوسيط.

Trade relations between the countries of the Middle Maghreb and the kingdoms of Western Sudan in the Middle Ages.

د مسعود خالدي(*)
جامعة 8 ماي 1945 قالمة، (الجزائر)، khaldmes57@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/02/ 20 تاريخ القبول: 2019/06/ 02 تاريخ النشر: 2020/12/ 27

الملخص: بدأت الصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي قبل الإسلام . ونشطت وازدادت بعد الفتح الإسلامي ،وكان للدولة الرستمية دور فعال في تنشيط الحركة التجارية مع ممالك السودان الغربي منذ القرن الثاني للهجرة ،وازدادت هذه الحركة في العهد الفاطمي والزيري ،وحرص المرابطون ومن بعدهم الموحدون على تأمين الطرق التجارية وتبادل السلع مع ملوك غانة ومالي وسنغاي ، وتمثلت مظاهر التبادل التجاري في ازدهار تجارة القوافل عبر الصحراء وفي ضخامة السلع المنقولة ،وتنقل آلاف التجار بين الشمال والجنوب وضخامة الأرباح المحققة من خلالها .

الكلمات المفتاحية: العلاقات، التجارة ،المغرب ،إفريقيا ، تنبكت.

Abstrac :
Tradstimulating trade with the kingdoms of western Sudan since the second century of mie links between Mghreb and Western Sudan began before Islam. And intensified and increased after the Islamic conquest. The Roustimid state had an acte role in gration. This movement increased in the Fatimid and Zairi periods. Al-Murabitun and Al-Mouahidun were keen to secure trade routes and exchange goods with the kings of Ghana, Mali and Sanghai. The trade exchange witnessed the prosperity of the caravan trade through the desert, the huge volume of goods transported, and the thousands of traders traveling between the north and the shout

Key words: Relationships, trade, Maghreb, Africa, Tabukt

* المؤلف المرسل.

المنارة للاستشارات

1. مقدمة:

إن الصلات التجارية بين دول المغرب الأوسط والسودان الغربي قديمة . فقد أشارت معظم المصادر التاريخية العربية إلى ذلك. فبعد الفتح الإسلامي بدأ اهتمام المسلمين بالمسالك والطرق المؤدية لإفريقيا جنوب الصحراء لصلة التجارة بانتشار الإسلام.

فمنذ القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي ازدهرت الحركة التجارية ونشطت قوافل المسلمين بين شمال القارة وغربها. وقام العرب والبربر بدور كبير في تنشيطها ، وتحولت المدن والقرى الموجودة في الصحراء وبلاد السودان إلى مراكز تجارية ومراكز علم وثقافة ، ترد إليها السلع من كل مكان ويدخلها العلماء والفقهاء بجانب التجار .وأستمر التبادل التجاري ولم تنقطع صلة التجار المغاربة بأهل السودان من عهد الرستميين إلى عهد الموحدين وبداية حكم الزيانيين . فكانوا في أكثر الأحيان متعاونين ومختلطين وأحيانا أخرى متعادين.

كيف كانت العلاقات التجارية بين دول المغرب الأوسط وممالك السودان الغربي خلال العصر الوسيط ؟ هل كانت ودية تعتمد على المودة وحسن الجوار أم عدائية تستند على القوة والسيطرة العسكرية ؟ هل حققت حققت الرفاهية لشعوب المغرب وأهل السودان؟ أم كانت عاملا في نشوب خلافات سياسية وحروبين الطرفين ؟ ماهو دور ملوك وأمراء دول المغرب وممالك السودان في تنشيط حركة القوافل التجارية عبر الصحراء منذ عهد الرستميين إلى عهد ةالموحدين والزيانيين ؟

من خلال هذا المقال سأتناول العلاقات التجارية بين دول المغرب الأوسط وبلدان السودان الغربي منذ القرن الثاني للهجرة / الثامن عشر الميلادي حتى التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من عهد الرستميين حتى عهد الموحدين والبداية العهد الزياني.

2. العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد الدولة الرستمية :

المنارة للاستشارات

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 06 العدد 03 ديسمبر 2020 ص- ص:42-60

تعتبر الدولة الرستمية من أولى الدول الإسلامية في المغرب الأوسط التي أقامت علاقات اقتصادية وسياسية مع إفريقيا جنوب الصحراء .فقد كانت تسيطر على معظم منافذ الطرق المؤدية إلى السودان ،وتمتلك عددا من القواعد الصحراوية التي تقع على طرق التجارة ، يذكر ابن سعيد المغربي أن ورجلان كان لها ارتباط ببلاد السودان والسفر منها إلى بلاد السودان كثير .[1] ولموقعها الممتاز في المغرب كان للدولة الرستمية إتصال مباشر بدول السودان يذكر البكري أن تاهرت اتجهت نحو الجنوب حيث لايوجد حدود جغرافية ولا سياسية وأن حركة الذهاب والإياب بين تاهرت والسودان كانت مستمرة .[2]ويبرز ابن الصغير ذلك في العبارة : " استعملت السبل إلى بلاد السودان "[3]وهي أقدم ما كتب عن علاقة تاهرت ببلاد السودان .فقد كانت قوافل التجارة للدولة الرستمية الضخمة تسير في إنتظام إلى أقطار السودان الأوسط والغربي

وكانت التجارة حرة يقوم بها كل فرد في الدولة الرستمية تنزع نفسه إلى التجارة وكانت الدولة تمهد لتجارتها الطرق وتحرسهم في السبل ، وتقيم لهم الرباطات والمنازل في مراحلهم ، وتحفر لهم الآبار ، وتبعث معهم الجند ليجتاز بهم المراحل المخيفة وترعاهم في الصحراء الكبرى التي يقطعونها . وكانت الدولة تنتفع من طموح التجار وتحثهم على توسيع التجارة ، وعلى إكثار القوافل . وكان التجار يدفعون إلى الدولة زكاة تجارتهم يبخسونها شيئا . فأغتنى الأفراد غناءا واسعا ، وحققوا أموالا ضخمة كانوا يزكونها كل عام ، فيدخل الفقراء من زكاتهم الوفيرة ما يغنيهم وينساب منها إلى بيت مال الدولة ما يفيض به.[4]

كان التجار المسلمين بمختلف مذاهبهم ووكلا وهم العناصر الأساسية في تنشيط العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها . فكلمة تاجر لم تكن تختص بالسلع فحسب بل كان لها مفهوم واسع ، فقد كان من الدعاة والفقهاء ، من مميزاته الحماسة الدينية وعمله على نشر الدعوة الإسلامية بالمنطقة التي يتواجد بها . فالتاجر كان يحمل بجانب سلعته آراءه الدينية ، ولما كان هؤلاء مسلمين فقد حملوا معهم الثقافة العربية الإسلامية ومبشرين لتلك الثقافة في بلاد السودان ، فكان هؤلاء أغلبهم من الإباضية .[5]يذكر لويكي عن أبي الربيع الوسياني أن عالما

المنارة للاستشارات

كبيرا من أهل الدعوة كان في بلاد السودان في القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي،وإن لم يكن تاهرتيا إلا أنه يمكن أن يكون مثالا ينطبق على تجار تاهرت .[6]وكان تجار الدولة الرستمية يدخلون في مجادلات ومناقشات دينية عقائدية مع السكان المحليين مما جعل مهمة التجار مهمة إقتصادية وفي نفس الوقت دينية من أجل الحصول على الأجر والثواب عند الله عند نجاحهم في إدخال الوثنيين للإسلام .[7]

ذكرت لنا كتب السير الإباضية مجموعة من التجار والفقهاء الذين وصلوا إلى بلاد السودان وقاموا بنشر الدعوة الإسلامية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين منهم : أبو نوح الصغير وأبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي الذي عاش بين 250هـ و300هـ أشتهر بكثرة تنقلاته إلى بلاد السودان ، وكان ذا سعة في العلم والمال درس في مدينة ورجلان وأنشأ بها حلقة علم جاءها الطلاب من كل مكان وعند تنقله إلى بلاد السودان كان يتقل معه معارفه من المذهب الإباضي وأستقر به بزويلة [8]،وابي صالح الياجراني من تجار علماء الإباضية عاش خلال القرن الرابع الهجري ،عرف بتجارته بين ورجلان وتادمكة،وأبي القاسم الفرسطائي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري وهو من العلماء الذين شاركوا في معركة مانو التي عرف فيها إباضيو جبل نفوسة هزيمة نكراء على يد الأمير الإغليبي إبراهيم بن أحمد سنة 283هـ / 897م[9] . ويزودنا الدرجيني في كتابه طبقات مشايخ المغرب بأسماء بعض التجار الذين سافروا إلى السودان الغربي لغرض التجارة ، كان منهم تاجر يدعى فلحون بن إسحاق بن واسين الذي قام بزيارة غانة عن طريق سجلماسة حيث توفي هناك .[10]ويضيف أن تاجرا آخر يسمى تملي الوسياني الذي عاش خلال الرابع الهجري كان فقيرا في بداية حياته وعندما سافر إلى تادمكة أصبح غنيا جدا بسبب التجارة فمن هناك بعث ست عشرة صرة من الذهب تحتوي كل منها على خمسمائة دينار من الذهب إلى بلدة القصور[11] التي كان بها وأمر بتوزيع هذه الأموال كصدقة على فقراء المسلمين ببلدته.[12]وجاء في مصادر الإباضية أن عالما يدعى أبو موسى بن أبي عمران الوسياني من بلاد الجريد بجنوب تونس ، ذهب إلى ورجلان

المنارة للاستشارات

حيث عرض عليه منصب معلم بمرتب مائة دينار ولكنه رفض ذلك وغادر الواحة إلى غانة للتجارة وأستقر بمدينة غيارو حيث قضى حياته هناك حتى توفي.[13]

رغم أن التجار الذين ذكروا من الإباضية فإن هذا لا يعني عدم تنقل التجار السنيين إلى البلاد السودانية ، فقد كان كثير منهم من القبائل البربرية التي كانت تسكن الصحراء وليس هناك من مبرر لقيامهم بالتجارة مع المناطق المجاورة لهم . ففي ترجمة للدباغ في كتابه معالم الإيمان لأحد الفقهاء الذي توفي سنة 275هـ /792م يذكر أنه كان تاجرا وله وكيل تجاري يجمع له البضائع لتحملها القوافل الصادرة من الشمال الإفريقي إلى المشرق أو بلاد السودان .[14]وفي ترجمة أخرى يذكر أن أحد كبار التجار أتاه يطلب منه زبيبا ، فكتب له رسالة لوكيله في المنطقة الساحلية حيث يقطن الطالب ليعطيه ما أراد .[15]مما يعني أنه كان لكل من التجار الكبار وكلاء في المناطق المختلفة للاتفاق على تصريف البضائع التي تأتي بها القوافل أو تجميعها .[16]

ربما يكون سبب عدم ذكر أسماء تجار المذاهب الأخرى منهم تجار المالكية هو عدم اهتمام الدول الإسلامية بالتجارة الصحراوية خلال هذه الفترة المبكرة للعصر الإسلامي بالمغرب وانشغال المسلمين بإتمام الفتح الإسلامي ثم التصدي للثورات الداخلية خاصة الخارجية في القرنين الثاني والثالث الهجريين /الثامن والتاسع الميلاديين . ضف إلى ذلك فتوى علماء المالكية في القيروان التي تجعل التجارة مع بلاد السودان "مكسبا " غير طيب ويتحرزون منه .[17] ويذهب بن أبي زيد القيرواني في رسالته إلى مساواة التجارة مع بلاد السودان بالتجارة مع أرض العدو .

رغم أن البلاد السودانية لم تكن أرض حرب لا يجد المرء لموقف المالكية القيراويين في ذلك الوقت تفسيرا عبر محاولتهم ضرب المصالح الاقتصادية جماعات الخوارج التجارية للجماعة السنية تم تختفي مثل هذه الفتاوى في مطلع القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي مع سيطرة الجماعات السنية على الصحراء وتجارتها بقيام حركة المرابطين التي بها ومعها بدأ انتصار السنة في المغرب والصحراء والبلاد السودانية جميعا .[18]

المنارة للاستشارات

3 . العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد الفاطميين :

استطاعت الدولة الفاطمية أن تبسط نفوذها على بلاد المغرب وإسقاط الدولة الرستمية في بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي. سعت بعد ذلك السيطرة على العالم الإسلامي ، ولتحقيق هذا الهدف أعطى خلفاؤها أهمية قصوى للمبادلات التجارية عبر الصحراء مما سمح لهم الحصول على كميات كبيرة من الذهب مكنتهم من تمويل منتجاتهم وضرب عملاتهم . على هذا الأساس حاولت هذه الدولة السيطرة على مسالك التجارة الصحراوية رغم المنافسة الشديدة مع الدولة الأموية بالأندلس المؤيدة من القبائل الزناتية الصحراوية أعداء الشيعة الإسماعيلية في الصحراء . ومن البديهي أن تكون العلاقات الثقافية مسبوقة بالعلاقات الاقتصادية والتي مكنت المذهب الشيعي والثقافة الشيعية دخول بلاد السودان.

كان للفاطميين علاقات قوية مع بلاد السودان مما كان له أثر ثقافي في تلك البلاد. حيث استطاعوا أثناء فترة حكمهم المغربية أن يربطوا علاقات تجارية مع مناطق جنوب الصحراء . وحققوا من خلالها أرباحا طائلة بفرض الضرائب على القوافل التجارية الآتية من بلاد السودان وصلت أثناء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أربعمائة دينار سنويا .فالمعز لدين الله الفاطمي لما عزم على توجيه حملة إلى مصر رصد أموالا كان مجموعها حوالي أربعة وعشرين مليون دينار كان قد جلبها من بلاد السودان .[19]

ومن عوامل إزدهار الحركة التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي هو تشجيع الفاطمين على ممارستها ، فالخليفة المنصور الفاطمي يقول :" ملت إلى التجارة في الحلال الطيب ." وقد أوصى القاضي النعمان برعاية التجار :" أنظر إلى التجار وأهل الصناعات ، فأستعرض بهم خيرا فإنهم مادة للناس."[20]

عمل الفاطميون على نشر الطمأنينة فيذكر القاضي النعمان بخصوص عهد أبي عبد الله الشيعي :" أن التجار مسافرون بالأموال الصامتة والسلع الظاهرة يمر بها الواحد والاثنان في الجبال والشعاب ...والبراري فيبيت حيث أمسى ويسير حيث أحب وانتهى كأنما هو في سوقه

المنارة للاستشارات

يبيت آمنا ويصبح سالما ." [21] ويصف قول أبي عبد الله الشيعي أنه يستعمل على أن يسلك السفر والسيارة بلا خفير ولا سفير من لدن الأرض أرض مصر إلى أقصى حجر بالمغرب ."[22]

إن انتشار الطمأنينة لا ينفي على عدم وجود عوائق سياسية وأمنية للتجارة مع بلاد السودان ، فقد تعرضت قبائل زناتية إلى وفد كان أبو عبد الله الشيعي قد أرسله بأموال إلى عبيد الله المهدي في سجنه في سجلماسة .[23]

وتعرض لنا بعض الفتاوى معلومات عن حجم المبادلات التجارية بين بلدان المغرب وبلاد السودان خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، وتبين أثر الصراع المذهبي على هذه المبادلات خاصة بين المالكية والشيعة . سئل القابسي (324 – 401 هـ/935-1012م) عمن دفع الى رجل قراضا ليمضي به إلى ناحية تادمكة وفي بلاد السودان ، فهذا اللفظ جرت الكتبة فيما بينهما و بذلك شهد الشهود ، فسافر إلى تادمكة ثم مضى منها إلى غانة وأودغشت وتأهل هناك وولد له وأقام إحدى عشرة سنة من يوم خروجه من البلد الذي أخذ فيه المال وعلى هذا العامل ديون باع القاضي فيها ماله ليقسمه بين الغرماء ، فقام من له القيام بهذا القراض، هل يضرب له مع الغرماء ويكون كما قال سحنون فيمن أخذ مالا قراضا ليعمل له في أرض تونس فسافر إلى مصر أنه يضرب بهذا القراض مع الغرماء أم هذا غير هذا ؟ وكيف إن خرج إلى الأندلس وسجلماسة من تادمكة إلى غانة وأودغست التي تأهل بها؟

فأجابه : قوله إلى ناحية تادمكة ، وهذا العامل قد تعدى فيما وصفته به من الأبطاء في هذه المدة البعيدة التي قد سافر فيها الناس وجاءوا ، قيل له ناحية تادمكة ،وكيف ان كان قد زاد هذا العامل السفر الى ناحية سجلماسة وإنما قيل له ناحية تادمكة ،وإن كان مسافرا إلى الأندلس فهذا أعجب ،على أن أقول إن إعطاء القراض على ذكر السفر إلى بلاد السودان غير جائز ، ليس هو عندي كالعطاء على السفر إلى أمصار المسلمين شرط بلاد السودان عندي في القراض غير مأمون ولا مرضي ، وما فساده بالدين تدخله في الضمان لأنه بأمر رب المال عمل ولكن بالتعدي الموصوف أولا جاز لرب المال العام عليه ويضمنه ما نسب له من رأس المال ويحاصص به على ظاهر التعدي والله أعلم ."[24]

المنارة للاستشارات

ومن العوامل التي أثرت على العلاقات التجارية الثقافية بين الفاطميين وأهل السودان الغربي هم الخوارج .فبعد سقوط الدولة الرستمية وملاحقة أبو عبد الله الشيعي لهم تفرق الخوارج في واحات الصحراء واتخذوها ملاجئ آمنة لهم مثل ورجلان وسدراتة. مكنهم هذا الوضع من ربط علاقات وثيقة مع دول جنوب الصحراء خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، فشكلوا بذلك سدا منيعا في وجه المد الشيعي نحو بلاد السودان الغربي .ومما زاد في الحد من النفوذ الفاطمي في الصحراء هو سيطرة القبائل الزناتية الإباضية المدعمة من الدولة الأموية بالأندلس على طرق ومسالك التجارة .[25]

كما كان لهجرات القبائل العربية من بني هلال وبني سلم إلى المغربين الأوسط والأدنى في بداية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي أثر سلبي على تجارة القوافل . فقد جعلت التجار ينصرفون عن المرور في الطرق المعتادة ، وأصبحت طرق المغرب الأقصى هي الأكثر أمنا في نقل السلع من السودان إلى البحر المتوسط ومنه الى المشرق . كما أدت الغارات العربية الى هجرة القبائل البربرية الى منطقة الصحراء ومنها على بلاد السودان . كما مكنت بعض القبائل العربية من الوصول الى حوض النيجر في عهد المرابطين والموحدين.[26] ومما زاد في انصراف التجار من الطرق المعتاد ارتيادها بالمغرب الأوسط هو نقل مركز الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر .

رغم الصعوبات التي واجهتها التجارة الصحراوية مع بلاد السودان في العهد الفاطمي، فإن حجم التبادل التجاري كان كبيرا والسلع المتبادلة كانت متنوعة . فابن حوقل وهو رحالة مشرقي وقد يكون من جواسيس الشيعة في بلاد المغرب ، قام برحلة مشهورة إلى بلاد السودان ، أورد في كتابه صورة الأرض معلومات قيمة عن هذه البلاد خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي وهو دليل على إهتمام الدولة الفاطمية بالتجارة مع مناطق جنوب الصحراء . فقد أعطى هذا الرحالة وصفا دقيقا لمدينة سجلماسة وذكر بأن لها شهرة عند التجار العرب حيث اتخذوها مركزا لتجارتهم ينطلقون منها إلى بلاد السودان ، فقال عنها :" كانت القوافل تجتاز المغرب إلى سجلماسة وسكانها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة ...الذين كانوا يقطعون

المنارة للاستشارات

مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد 06 العدد 03 ديسمبر 2020 ص- ص:42-60

ذلك الطريق ، فهم وأولادهم وتجارتهم دائرة ومفردتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم شائعة فلما يدانيها التجار في بلاد السودان ويحقق التجار أرباحا طائلة وفوائد عظيمة."[27] ومما يدل على الرخاء الاقتصادي هو ما ذكره ابن حوقل عن عدم انقطاع القوافل التجارية التي تجوب الصحراء ذهابا وإيابا ، ومما أورده :" ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان وأرباح متوفرة ."[28]

4 ـالعلاقات االتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهدي المرابطين والموحدين :

شهد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ازدهارا للتجارة عبر الصحراء ، فقد استطاعت دولة المرابطين توفير الأمن من خلال فترة مكنها بعد أن وجدت القبائل الصنهاجية وأسست الطرق .[29] وأدت سيطرتهم على مراكز تجارية هامة مثل درعة وسجلماسة سنة 446هـ / 1054م من السيطرة على الطرق التجارية .[30] واستطاعوا التحكم في منافذ الطرق الكبرى بعد أن دخلوا أودغست سنة 446هـ / 1054م . وينقل لنا البكري في كتابه المغرب وصفا دقيقا للتجارة والطرق التجارية التي كانت تربط المغرب بالسودان الغربي . وتميزت العلاقات مع بلاد السودان بالتعاون السياسي والتجاري ، فقد رحب ملك غانة بالتجار المسلمين واستعان بهم في تسيير شؤون الحكم وقلدهم المناصب العليا في بلده .[31]

وفي عهد المرابطين كانت الصحراء تمثل الامتداد الطبيعي للقبائل البربرية منها القبائل الصنهاجية .[32] كانت هذه القبائل تسيطر على طرق القوافل التجارية منذ القرن الثالث الهجري وكان من الطبيعي أن تكون مثل أودغست وسجلماسة وورجلان التي تسكنها هذه القبائل مركز ومحطات للقوافل التجارية . ويتضح أن التجار من أهل المغرب والصحراء، ومن ضمنها الصحراء الوسطى المتصلة مع المغرب الأوسط ، في سفر دائم الورود وكان اجتيازهم لمصاعب النقل في الصحراء إنما الهدف منه الوصول إلى الذهب الموجود في ممالك السودان

المنارة للاستشارات

الغربي ، وقد أشار إلى ذلك بن حوقل[33] حينما تحدث عن مملكة غانة وتبادل السلع منها الملح مقابل الذهب.

وكما ذكرنا سابقا فالعلاقات التجارية بين بلاد المغرب وصحرائه مع بلاد السودان الغربي تعود إلى ما قبل عهد المرابطين . فالقبائل البربرية كانت تسيطر على مجالات واسعة من الصحراء ومسالكها الكثيرة ، ولذلك فالقوافل التي كانت تمر بها تحمل أنواع السلع ، حيث ساهمت هذه الوضعية في إحتكار القبائل البربرية لحركة التبادل التجاري باعتبارهم وسيط منذ البداية .[34]

وبحكم سيطرتهم على هذه الطرق ، فإن القبائل الصنهاجية بالصحراء كانت تقوم بتوفير الأمن وحفر الآبار مقابل فرض إتاوات ومكوس على التجارة العابرة لتلك الطرق.[35]

ونتيجة لهذا النشاط الدائم لقوافل التجارة تحولت المدن الواقعة على بداية هذه الطرق إلى مراكز تجارية يأتيها التجار من كل مكان من البصرة والكوفة وبغداد وكانوا يقطعون ذلك الطريق هم وأولادهم وتجارتهم دائرة وفوائدهم منقطعة إلى أرباح عظيمة .[36]

ومما يشير على كثافة النشاط التجار للصحراء الوسطى ، ما ذكره بن خلدون بأنه لاحظ في منطقة الهوقار بأن القوافل التي تمر بها بلغ عدد جمالها اثني عشر ألف جمل في أحيان كثيرة ، وأن هذه القوافل كانت تأتي من تلمسان إلى توات لتصل مدينة تنبكت .[37]

وترجع عظمة مملكة غانة التاريخية ، وشهرتها وثرائها ، أساسا إلى أرباحها التجارية الطائلة مع بلاد المغرب خاصة خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .[38]

إن موقع غانة الإستراتيجي وعاصمتها كومبي صالح جعلها حلقة إتصال بين الشمال والجنوب ، كما أن تحكمها في طرق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب الكبرى في جنوبها أفادها وأثراها . تاجرت غانة مع جميع المدن الهامة في شمال إفريقيا منها مدن المغرب الأوسط مثل ورجلان وتلمسان، فقد كانت تصدر الذهب والرقيق والجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل وكذلك القطن يقول البكري : " ويزرعون مرتين في العام على ثرى النيل ."[39] وتستورد غانة الملح والنحاس الأحمر مقابل الذهب . فقد كانت تجارة الملح أهم ما تسورده يقول بن حوقل :

المنارة للاستشارات

" وحاجتهم . أي أهل عانة . إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام فإنه لا قوام لهم إلا به ، بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين وثلاثمائة دينار . "[40] وكان هذا الملح يستخرج من تغازة في الشمال ويحمله التجار المغاربة في طريقهم إلى بلاد السودان . ويعد تجار سجلماسة من أهم التجار التي عملت مع غانة وحققوا أرباحا طائلة يقول ياقوت الحموي : " وأهل هذه المدينة . أي سجلماسة . من أغنى الناس وأكثرهم مالا ، لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها ."[41]

وقد حصلت غانة على ثروة طائلة من الضرائب التي فرضتها على السلع الداخلة إلى بلادها إلى بلاده منها الملح ، وقدر ملك غانة ضريبة قدرها ديناران ذهب على كل حمولة حمار من الملح يدخل بلاده حسب ما ذكره البكري .[42]

أما تجارة الذهب فهي التي كانت مصدر الربح الكبير لدولة غانة ، حيث كان يستخرج من منطقة ونقارة وغيارو بلاد التبر كما وصفه الإدريسي [43]. ويذكر لنا البكري أنواع الذهب بهذه المناطق والمسافات التي كانت قائمة بين مراكز إنتاجه وأن القبائل الوثنية هي التي كانت تسيطر عليها ، وأن غانة كانت تقوم بدور الوسيط مما حقق لها أرباحا طائلة .[44]

لقد ساهمت التجارة في توثيق العلاقات بين السودان الغربي في عهد مملكة غانة والمغرب الأوسط والأقصى في عهد المرابطين . حيث كان التجار المغاربة يستقبلون بحفاوة كبيرة لسمو أخلاقهم وخبرتهم بالسياسة والإدارة ، واستطاعوا تقلد مسؤوليات كبيرة في مملكة غانة ، فعملوا كمستشارين للملك ووزراء وتراجمة له وضمنوا بذلك حماية الملك لهم ، وعن طريق استطاعوا إنشاء أسواق تجارية ومراكز يقيمون فيها المساجد لتأدية صلاتهم فتنجذب إليهم عامة الناس التي تكن لهم الاحترام .[45]

ومن الإشارات التي تدل على قدم العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد الموحدين هي شركة أسرة المقري التلمساني التي ساهمت في تنشيط هذه العلاقة ، فجد الكاتب المعروف أحمد بن محمد المقري المتوفى سنة 1633م وهو صاحب كتاب نفح الطيب

المنارة للاستشارات

في غصن الأندلس الرطب . ويحتمل أن هذه الأسرة بدأت أعمالها التجارية منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أي قبل نهاية دولة غانة بما يقرب من قرن ، فقد كان لهم ممثلون ووكلاء في مدينة ولاتا الخاضعة لغانة وشهد هؤلاء المقيمون في ولاتة نهاية دولة غانة على يد قبائل الصوصو سنة 1203م ، كما شهدوا هجرة العلماء والتجار المسلمين من عاصمتها كومبي صالح إلى ولاتة بعد دخول الصوصو .

وعلى غرار المرابطين استمرت العلاقات المغربية السودانية على عهد الموحدين ، يشهد على ذلك الرسالة التي أرسلها والي سجلماسة في مطلع القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي لملك غانة بشأن تيسير ظروف التجارة ما بين المملكتين ومضمونها ورد في كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني : " نحن نتجاوز بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان ، ونتآلف على الرفق بالرعية ، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة ، والجور لا تعافيه إلا النفوس الشريرة الجاهلة . فقد بلغنا إحتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكن من إستبطانها ، ولو شئنا لأحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية لكن تتصوب فعله ، ولا ينبغي لنا أن ننهي عن خلق ونأتي مثله والسلام . "[46]

وشهد عهد الموحدين حركة سكانية كبيرة وتمثلت في تهجير القبائل العربية من بني هلال من المغرب الأدنى إلى المغرب الأقصى . فقد قام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي والخليفة الموحدي الثالث أبو يعقوب المنصور (585 هـ – 595 هـ) من تهجير القبائل العربية خلال الاضطرابات التي أحدثها بنو غانية الصنهاجيين سنة 582هـ [47]. فهاجرت قبائل جشم والأثبج ورياح إلى المغرب الأقصى وبعضها أستقر بمراكش وأحوازها وأمتد مجال استقرارها نحو الجنوب حتى وصل بلاد السودان . وبادرت قبائل بني الهلالية إلى الهجرة نحو جنوب الصحراء ، واستقرت على ضفاف نهر السنغال ونهر النيجر وأشار ابن خلدون إلى ذلك فقال إن بطون عرب المعقل استولوا على مراكز تجارية هامة من بلاد السودان ومنها تنقلوا إلى بلاد السودان وأطلق عليهم قبائل الشابات وهي فرع من بني معقل[48] .

المنارة للاستشارات

توسعت أعمالهم بالصحراء وبلاد السودان مما جعل القبائل المجاورة لهم وحتى الملوك والأمراء يحاولون كسب ودهم عن طريق منحهم الهدايا ومن ثم فسح المجال أمام القوافل التجارية وتأمين الطرق .

يمكن القول أن القبائل العربية كان لها دورا فعالا في تنظيم تجارة القوافل بتأمينها وحراستها مقابل رسوم .

5 . العلاقات الاقتصادية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد الدولة الزيانية:

لم تتوقف الاتصالات والتبادل الاقتصادي بين المغرب الأوسط والسودان الغربي والأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس الميلاديين، فقد كانت تلمسان مركز تجاري تمر منه القوافل التجارية وكان حجم السلع التجارية كبير جدا خلال العهد الزياني، فعبد الرحمن بن خلدون يذكر أن القوافل في الصحراء المتجهة إلى مناطق جنوب الصحراء عبر منطقة الهقار بلغ عدد جمالها اثني عشرة ألف جمل في أحيان كثيرة ومن مسالكها أنها كانت من تلمسان إلى منطقة توات وينتهي إلى تنبكتو.

كانت تلمسان في عهد الزيانيين وبحكم موقعها الجغرافي مركز تنطلق منها القوافل التجارية وتنتهي بعض الطرق والمسالك ، كما تأتيها البضائع من كل مكان منها الذهب من بلاد السودان . وبفضل تجارة القوافل عرفت الدولة الزيانية ازدهارا اقتصاديا ،وتحولت عاصمتها نقطة التقاء للتجار وقوافلهم ومنطقة ربط بين بلاد المغرب الأوسط والسودان الغربي .

فقد كان تجارها يجوبون المدن السودانية مع قوافلهم وأشار الرحالة بن بطوطة إلى ذلك عندما ذكر أحد هؤلاء والذي يعرف بتاجر تلمسان الحاج زيان . كما ألتقى بعدد من التلمسانيين في مدن مملكة مالي منهم بن الفقيه الجزولي وصهره الفقيه عبد الواحد وشمس الدين النقويشي والشيخ اللبان التلمساني.[49]

وكانت هناك مسالك تربط تلمسان ببلاد السودان الغربي عن طريق منطقة توات منها يدخل التجار ومعهم الفقهاء والعلماء كما سنذكره فيما بعد، أشهرهم العالم والفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني[50].

المنارة للاستشارات

ومن مظاهر العلاقات التجارية بين "المغرب الأوسط والسودان الغربي هو الدور الذي كانت تقوم به أسرة المقري فقد كان أفرادها من أشهر التجار المسلمين والتي مارست التجارة منذ عهد الموحدين. ويذكر المقري في كتابه نفح الطيب أن جده عبد الرحمن المقري عمله حقق أرباحا طائلة من تجارته في بلاد السودان، فكان له عدة أولاد وأسسوا شركة تجارية وتعاملوا مع الملوك في عهدهم بينهم الملك منسى موسى، كانوا يتبادلون الرسائل والهديا وخص بعضهم بالصديق ويطلب منهم تزويد بلاده لما تحتاجه من بضائع[51].

وكانت توات الموجودة في صحراء المغرب الأوسط من المراكز التجارية الهامة خلال القرن الثامن والتاسع الهجريين. فقد ذكرها بن خلدون وأشاد بعمرانها مما يؤكد أنها كانت مزدهرة في عهد سلطنة مالي ويقول ابن خلدون[52]: "...فمنها على ثلاث مراحل قبيلة سجلماسة ، وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئتين ، آخذة من الغرب إلى الشرق وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيط ، وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار المتمردين من المغرب إلى بلد مالي من السودان في هذا العهد."

وواصلت توات نشاطها في عهد سلطنة سنغاي(القرن 9 –10م) وذكرها عبد الكريم المغيلي واصطدم باليهود الذين يسيطرون على التجارة فيها.

ذكرها ليو الإفريقي في كتابه وصف إفريقيا [53]فيقول :"...تحتوي توات على أربعة آلاف عائلة ، ولها في حصنه زراعة الحبوب والشعير ويزرعون قصب السكر بكميات وفيرة تكفي حاجاتهم ، ويصدرون الباقي لتجار المغرب وفاس ولبلاد السودان وعندهم كميات كبيرة من التمر ولا يستعملون أية عملة بجانب الذهب الذي يستخرج من أراضيهم ذاتها .

ويتضح من هذه الطرق أن توات كانت مركزا زراعيا وتجاريا فضلا عن وفرة معدن الذهب حتى صار العملة الوحيدة السائدة بها . وتعتبر توات مركز إسعاف لتجار القوافل بحكم موقعها في واحة غنية فتزود التجار بالغذاء والماء العذب وتوفر الكلأ لجمالها والأدلاء .

وكان للعرب المستقرين بالمغرب الأوسط من عرب المعقل وبني عامر ممارسة التجارة الصحراوية مع بلاد السودان ، فقد كانوا يقومون برحلة الشتاء كل سنة ، من بلادهم الواقعة

المنارة للاستشارات

جنوب تلمسان فيأخذون محور تلمسان توات والسودان الغربي[54]. ونتيجة للعلاقات التجارية تنقل عدد كبير من التواتيون إلى مدينة تنبكتو وأصبحوا يشكلون جالية كبيرة . وعندما زارها عبد الكريم المغيلي التلمساني سنة 908هـ/ 1502م أيام الإسقيا محمد الكبير وجد بها عدد كبير من التجار المغاربة[55].

6.الخاتمة :

بعد الفتح الإسلامي للمغرب نشطت الحركة التجارية بين دول المغرب الإسلامي ومملك السودان الغربي، فكان لتجار الإباضية فضل كبير في نقل مختلف السلع بين الشمال والجنوب وفي نفس الوقت نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في عهد الدولة الرستمية . فقد نقل لنا كل من الشماخي والوسياني وابن الصغير أسماء لعدد نت التجار الذين ذهبوا إلى بلاد السودان وفي نفس الوقت تنقل معهم العلماء والفقهاء لنشر الإسلام هناك .

ورغم صعوبات الإتصال بين الفاطميين ودول السودان بسبب الظروف السياسية والأمنية ، تحصل أمراء الدولة الشيعية على أموال ضخمة من تجارة القوافل ، كما تحصلت مملكة على ثروة طائلة من الضرائب التي كانت تفرض على السلع الدخلة إلي بلادها . وساهمت التجارة الصحراوية على توثيق العلاقات بين دول المغرب وممالك السودان الغربي فتعززت روح الأخوة . فكان إستقبال الغاربة بحفاوة وكانوا يمنحون المناصب العالية في الدولة فتقلدوا منصب الوزراء ومستشاري الملك ومترجميه ، كما أندمج الكثير منهم في المجتمعات السودانية وأستقرت بتلك البلدان عدد كبير من القبائل العربية والبربرية خلال فترة ةالعصر الوسيط .

وفي عهد المرابطين والموحدين أزداد حجم التبادل التجاري بين دول المغرب وممالك السودان (غانة ومالي وسنغاي) مما كان له تأثير على الازدهار الاقتصادي وتعزيز علاقات المودة بين أهل المغرب وبلاد السودان . فأنتشر الإسلام ومعه الثقافة العربية الإسلامية ، فأصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية لمعظم ملوك السودان وعم الفقه المالكي بإفريقيا جنوب الصحراء وبسبب دخول كتب المالكية مثل الوطأ للإمام مالك والدونة الكبرى لسحنون بن سعيد وترتيب المدارك

المنارة للاستشارات

للقاضي عياض ومعالم الإيمان للدباغ وغيرهم حسب ما ورد في كتاب التاريخ للسعدي والفتاش لمحمود كعت التنبكتي.

6. قائمة المراجع:

[1] – ابن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ،تحقيق إسماعيل العربي ،الجزائر ، 1984 ، ص26

[2] – البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ، 1857 ص ، ص10

[3] – ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي ، 1986، ص13

[4] – محمد علي دبوز : تاريخ المغرب الكبرى ، ج3،الطبعة الأولى ،دار إحياء الكتب العربية ،1383هـ /1963 ص244

[5] – أرنولد توماس : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة العربية ، ط1 ، 1970ص 351

[6] - Tadeuz lewicki : l'etat nord africain de tahert et ses relation avec le soudan occidental a la fin du7eme et au 9eme siecle – cahier d'etudes africaines vol 2 n8 1962 p 513- 535

[7] – إدريس صالح الحرير : العلاقات الإقتصاديةوالثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبر، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية–طرابلس العددالأول ،يناير 1983 ، ص77

[8] –الدرجيني : طبقات مشايخ المغرب ، تحقيق إبراهيم خلاص ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، ج2 ،ص262

[9] – أبو زكريا ت471هـ/1078م : سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت ، 1970، ص104,105

[10] – الدرجيني :المصدر السابق، ج2 ،ص 267

[11] – بلدة توجد بجنوب تونس

[12] – نفسه ، ج2 ص78

[13] –الوسيساني: السير ، طبعة حجرية ، قسنطينة ، ص 411– أبو الربيع الوسياني : السير ، مخطوط بمكتبة بني يزقن بغرداية ،ج2 ، ورقة 22

المنارة للاستشارات

[14] – الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ، 1322هـ ،ج1،ص169

[15] – نفسه ، ص166

[16] – خيري هالة الدقاق : دور قبائل المغربين الأوسط والأقصى في حركة التجارة إبان القرن الثالث الهجري /السابع الميلادي ، رسالة ماجستير ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة ، 1423هـ/2003م ،ص 144

[17] – المالكي (عبد الله) : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ، تحقيق بشير بكوش ، دار الغرب الإسلامي،1987، ص118، 338

[18] . عز الدين عمر موسى : إنتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن 6هـ/12م،ندوة: العلماء الافارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم 1983/07/28 ، ص50

[19] – موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1979 ،ص 454

[20] – جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين 3 و4 هـ / 9و10م ، الجزائر ،ص193

[21] – القاضي النعمان(ت363هـ/973م) : إفتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضي ،مطبعة دار الكتب ،ط1 ، بيروت ،1970 ص125

[22] – نفسه ، ص235

[23] – جودت عبد الكريم يوسف : المرجع السابق ، ص193

[24] – الونشريسي(أبو العبس أحمد بن يحي)ت914هـ : المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوى أهل إفريقية والأنلس والمغرب ،وزارة الأوقاف الإسلامية ، المملكة المغربية ، 1401هـ/1981م،ج9 ، ص116

[25] – J- DEVISSE : TEGDAOUST-RECHERCHES SURAWDAGHOST- PARIS P128

[26] – ابن خلدون (عبد الرحمن محمد) ت 808هـ/1406م: العبروديوان المبتدأ والخبر،دار الكتاب اللبناني للطباعة 1959،ج6 ، ص70

[27] – ابن حوقل(أبو القاسم النصيبي) ت367هـ/977م : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ، ص 39 ، 40، 41

المنارة للاستشارات

[28] – نفسه ، ص41

[29] – جون هنويك : العلاقات الفكرية بين المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء ، ص 11 ، 12

[30] – الناصري السلاوي : الإستقصاء في أخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، 1955 ، ج5 ، ص155

[31] – البكري : المصر السابق، ص 168

[32] – . ابن أبي الزرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، 1973 ، ص 101 ، 103

[33] – بن حوقل : المصدر السابق ، ص 110 .

[34] – . ابن خلدون : العبر ، ج 6 ،ص 271

[35] – . ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 101 ، ة103

[36] – . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج5 ، 164

[37] – . عبلة سلطان : الوجود المغاربي في السودان الغربي ، دكتوراه بجامعة القاهرة ، 2001 ،ص30،31

[38] – . إبراهيم علي طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ، الهيئة المصرية للثقافة والتأليف والنشر ، القاهرة ، 1970 ، ص64

[39] – البكري : المصدر السابق، ص 77

[40] – . ابن حوقل : المصدر السابق ، ص97

[41] – . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1990 ،ج3 ، ص 53

[42] – . البكري : المصدر السابق، ص 175

[43] – . الإدريسي : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، تحقيق إساعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983،ص14

[44] – . البكري : المصدر السابق ، ص 75

[45] – . عصمت عبد اللطيف دندش : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفرقيا ، دار الغرب الإسلامي ، 1979 ، ص 115

[46] – أحمد لمقري : نفح الطيب ، بيروت ، 1968 ، ج3 ،ص105

[47] – . ابن خلدون : العبر ، ج6 ، ص 25

المنارة للاستشارات

[48] – . نفسه ، ج6 ، ص 69

[49] – . ابن بطوطة : رحلة بن بطوطة ، ص 681

[50] . عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، القاهرة ، 1961 ، ص51

[51]– المقري، المصر السابق، ج7، ص 132.

[52] – . ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة ، لبنان ، ج6 ، ص280

[53] – حسن الوزان : وصف إفريقيا ،ترجمة محمد حاجي ومحمد زنير وآخرون ، دار النشر للمعرفة ، الرباط ، ج7 ،ص132

54 – الهادي مبروك الدالي : التاريخ الحضاري لإفريقيا جنوب الصحراء ، ، طرابلس ، 2001، ط2 ، ص106

55 – عبد القادر زبادية : مملكة سنغاي في عهد الإسيقيين 1493 – 1591 م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 ، ص 216

المنارة للاستشارات